الطوطمية

او تقديس الاشياء

لرشوان احمد صادق

كثيراً ما نسمع أو نقرأ عن تقديس بعض الحيوانات أو النباتات في المجتمعات البائدة وكثيراً ما تكشف لنا الحوادث والايام بعض تلك الظواهر كامنة في مجتمعاتنا المتحضرة واضحة بين الشعوب التي لا تزال تعيش على الفطرة . ولقد قرأت في عدد جريدة المصري الغراء الصادر في ١٢ نوفمبر سنة ١٩٤١ نبأ فتاة دون العاشرة تضع طفلاً . وفسر ذووها هذا الحادث الغريب في بابه بأن حية نظرت الى هذه الفتاة بغدر فتم هذا الحمل . ذلك الاعتقاد ما فتىء سائداً بين الهنود الحمر سكان أميركا القدماء الذين لا يزالون ممثلين الى وقتنا هذا في ارجاء قارة اميركا وهم محافظون على معظم عقائدهم القديمة رغم أخذهم بأساليب المدنية الحديثة واليهم تنتسب تلك الفتاة

ذلك الاعتقاد ليس في الحقيقة إلاّ بقايا نظام اجتماعي قديم ولم يقتصر انتشاره على هنود اميركا الحمر بل كان يعم معظم بقاع العالم القديم قبل معرفة قارة أميركا ولا تزال بقاياه ممثلة في المجتمعات الحديثة . تلك البقايا تتمثل في المعتقدات المستترة التي تحتاج الى البحث والتنقيب لكشف القناع عنها . ويعرف ذلك النظام الاجتماعي القديم في الاوساط العلمية باسم « الطوطمية » .

وكلمة « طوطم » هذه من كلمات هنود اميركا وتهجيتها الحقيقية غير معروفة لنا تماماً . وقد ظهرت هذه الكلمة أولاً في كتابة المستر لنج J. Long وهو مترجم هندي كتبها طوطام[1] Totam أما فرنسيس وهو هندي من سكان مدينة برتمد الاميركية فقد كتبها « اودودام » Odoodam[2] وأخيراً اصطلح العلماء الانكليز على كتابتها « طوطم » Totem وهذه الكلمة تدل على شيء يختص بالاسرة أو القبيلة[3]

(١) ... (٢) ... (٣) ...

والطوطم فئة من الاشياء المادية التي ينظر اليها الانسان غير المتمدين باحترام اساسه الاعتقاد في الخرافات والخزعبلات . فهو يؤمن بوجود علاقة خاصة بينه وبين كل مفرد من وحدات فصيلة هذا الطوطم . فعلاقة الانسان بطوطمه علاقة مؤسسة على العطف المتبادل بمعنى ان الطوطم يحمي الانسان وفي نفس الوقت يحترم الانسان طوطمه بطرق شتى . فمثلاً يحرم على نفسه قتل هذا الطوطم ان كان حيواناً ويحجم عن قطعه او حصده ان كان نباتاً . ومن ذلك نتبين ان الطوطم ليس سحراً أو طلسماً بل هو فصيلة او فئة من أشياء مجتمعة من حيوان أو نبات وقلما يكون الطوطم جماداً كما انه يندر جداً أن تتخذ الظواهر الطبيعية طواطم

ويمكن أن نورد هنا ثلاثة أنواع من الطواطم خاصة بالذكور وهي :

١ — طوطم القبيلة وهو عام لجميع أفرادها ويستمر الاعتراف به حيلاً بعد جيل بطريق الوراثة الاجتماعية

٢ — الطوطم الجنسي وهو عام لجميع ذكور القبيلة دون نسائها أو لجميع نسائها دون ذكورها

٣ — الطوطم الشخصي ، ويختص بالفرد دون نسله وسلالته

هذه هي أهم أنواع الطوطم ومع ذلك هناك أنواع أخرى نادرة قليلة منه

وطوطم القبيلة تجعله مجموعة من الرجال والنساء الذين يطلقون على أنفسهم اسم الطوطم ويعتقدون انهم وهذا الطوطم من دم واحد ومن سلالة جد واحد . كما ان كلا منهم يرتبط بالآخر بالتزامات عامة وكذلك بالاعتقاد في هذا الطوطم . ومن ذلك يتبين ان الطوطمية نظام ديني اجتماعي . أما الناحية الدينية فتتمثل في العلاقات المؤسسة على الاحترام المتبادل بين الطوطم وكل فرد من أفراد القبيلة . وكذلك تتضح في حماية الطوطم لافراد قبيلته ودفاع أولئك الافراد عن طوطم القبيلة . أما الناحية الاجتماعية فتتجلى في علاقة كل فرد من أفراد القبيلة بالآخر من ناحية وعلاقة أفراد هذه القبيلة بأهل القبائل الاخرى من ناحية أخرى

ولكي نوضح الطوطمية من الناحية الدينية سنضرب بعض الامثلة من قبائل الهنود الحمر أميركا وغيرهم من قبائل العالم وهي توضح لنا تماماً علاقة القبيلة بطوطمها

فمثلاً قبيلة « الاركولي »(١) التي كانت تتخذ السلحفاة طوطماً لها يلخص قصتها في أن هذه السلحفاة كانت عظيمة الحجم وكان الصدف الذي يغطيها ثقيلاً عليها فألقته جانباً وتحولت

(١) Iroquois

فجأة الى انسان . كما ان هناك بعض العشائر من هذه القبيلة كانت تتخذ الدب طوطماً لها في حين كانت عشائر أخرى تتخذ الذئب طوطماً لها

أما قبائل «الشكتاو»[1] فكانت تتخذ نوعاً من السمك طوطماً لها ويعتقدون ان أجدادهم كانوا حيوانات بحرية تعيش تحت سطح الارض ثم انبعثت فجأة من الطمي الى سطح الارض

ويعتقد جماعة الاجبواي[2] انهم من سلالة كلب كما ان فرعاً منهم وهم عشيرة الكرمين كانوا يعتقدون انهم ابناء زوج من طير الكركي حطّا بعد جولة طويلة على شلال عند مخرج بحيرة سوبيريور (أي البحيرة العليا بامريكا الشمالية) وهناك تحولا بواسطة الروح العليا الى رجل وامرأة

اما قبيلة «الكتف الاسود» أو قبيلة الجاموس وهي فرع من قبيلة «الاوماها»[3] فكانت تعتقد انهم في الاصل جاموس وكانوا يسكنون تحت سطح الماء

اما قبيلة «الآساج»[4] فكانوا يعتقدون انهم وجدوا نتيجة اختلاط قوقع بكلبة بحر اختلاطاً جنسيًّا . اما القوقع فقد حطم اصدافه واظهر ذراعيه وقدميه وساقيه وأصبح رجلاً حسن المنظر طويل القامة ثم بعد ذلك تزوج من كلبة بحر . وكان الهنود الحمر في كلمورنيا يعتقدون انهم من سلالة ذئب وانهم كانوا يمشون على اربع في اول امرهم ثم بعد ذلك اصبح لهم أعضاء جسم الانسان مثل اصبع يد واحدة وأصبع قدم واحدة وعين ثم بعد ذلك اصبح لهم زوج من كل من الاعضاء التي ذكرناها واستمروا كذلك يستكملون اعضاءهم حتى اصبحوا بشراً كاملاً وكانوا يبكون ضياع ذيولهم ويعتقدون ان ذلك نجم عن جلوسهم مستقيمين في وضع رأسي

ويعتقد جماعة «اللياب»[5] وهم فرع من قبائل «الدلاور» انهم من سلالة الذئب والسلحفاة والديك الرومي ولكن النسل للقبيلة التي تتخذ السلحفاة طوطماً لها وذلك لان هذه القبيلة ليست من سلالة سلحفاة عادية ولكنها من سلالة السلحفاة العظيمة الاصلية التي تحمل العالم على ظهرها وهي التي كانت أول مخلوق حي على ظهر البسيطة

وكانت تعتقد قبيلة «الهيدا»[6] وأبناؤها هم سكان جزائر الملكة شارلوت ان غراباً توحيًّا ذهب منذ زمن بعيد الى الساحل وتزوج من قوقعة وضعت له انثى اتخذها الغراب زوجة له ومن هذا الارتباط نشأ الهنود

اما قبائل «الالوناك»[7] فكان غياثا فكان السائد بينهم ان انشأهم علاقة بعض الطيور والحيوان والنبات . كما ان بعض قبائل بيرو من سكان امريكا الجنوبية وهم من الهنود الحمر القدماء

---

(1) Report of the Ojebwa Indians, London, 1824; Shingwaus, (2) Long, (3) Dorsey, (4) Black shoemaker, — Dunlop, 1886, P. 136 (5) Delaware, (6) Haida, (7) Algonkin, — Mc Arthur

ليسوا من جنس الانكا اصحاب المدنية المشهورة والحضارة العظيمة كان هؤلاء الاراواك يعتقدون ان اصلهم يرجع الى العقاب وبعضهم يرجع الى الرخمة

كما ان بعض قبائل اواسط استراليا كانوا يظنون انهم نشأوا من البط والبجع وغيرها من الطيور المائية . وقبائل « الجوجال »[1] في جنوب ويلز الجديدة كانوا يؤكدون ان كل انسان منهم لطوطمه بطريقة غير مباشرة . كذلك جماعة « الساتتال[2] » في بلاد البنغال كانوا يتخذون الاوزة البرية المتوحشة طوطماً لهم ويعتقدون ان نشأتهم كانت ترجع الى بيضة هذه الاوزة

وفي سنغامبيا كانت تعتقد كل عائلة أو عشيرة انها من سلالة حيوان مثل فرس البحر أو التمساح او العقرب وغيرها فتنتسب كل عشيرة الى طوطمها

وكان يظن سكان بعض جزائر جنوب المحيط الباسفيكي مثل جزائر فوتا فوتي والبس انهُ كان القنفذ يسكنها ثم تحولت القنافذ الى سلالة رجال ونساء كما ان قبائل « الكالانج »[3] الذين يقال انهم سكان جزيرة جاوا الاصليون كانوا يعتقدون انهم من سلالة اميرة ورئيس سخط وتحول الى كلب . كذلك بعض سكان جزائر امبن وبلباس . وكيزو ووتار وارخبيل الارو والبابار كانوا يعتقدون انهم من سلالة اشجار وخنازير وتماسيح وكلاب بحر وحيات وكلاب وسلاحف وغير ذلك

***

وننتقل الآن الى نوع آخر من الطوطمية يرتكز على اساطير خرافية مؤداها ان امرأة من الجدات ولدت حيواناً من النوع الذي تتخذه القبيلة طوطماً لها، مثال ذلك قبيلة « موكى »[4] وهم هنود حمر من ارزونا كانوا يعتقدون انهم من سلالة امرأة ولدت الثعابين . كذلك جماعة « الباكالاي »[5] في افريقة الاستوائية الغربية كانوا يؤمنون بأن نساء ولدن الحيوانات التي يتخذونها طواطم لهم مثل الفهد والتمساح وفرس البحر والقرد والبوا والخنزير البري . وفي ساموا كانوا يعتقدون ان طفلاً تحمل عند ولادته الى عدد من حيوان بحري يشبه الخنزير

وكثير من تلك الاساطير المختلفة لا تبين تاريخ مبدأ ظهور الطوطم فمثلاً عشيرة من قبائل « الاوماها »[6] تقول ان أول رجل من رجال القبيلة ظهر من الماء وفي يده سنبلة من الذرة الحمراء التي تقسمي هذه العشيرة باسمها

ويرجع بعض قبيلة الاوماها اكل لحم الجاموسة ورأسها ، الى سبب ديني فحواه انهُ بينما كان احد رؤسائهم في دير الطقوس الدينية للشمس فاذا به يبصر فجأة شبح جاموسة يقفز من خلال الماء وفي غرب استراليا قبيلتان تعترفان بأنهما سميتا باسم حيوان بحري وهو

غذاء أساسيٌّ لها . كما ان بعض العشائر في جزائر ليتي وموا ولاكر تحترم كلب البحر ولا تأكله ويرجعون السبب في ذلك الى ان أحد كلاب البحر ساعد مرة أحد اجدادهم عند ما كان ينجز مهمةً ما في البحر ومن ثمَّ نشأ هذا الاحترام . أما جماعة «الاينو» [1] في بلاد اليابان فكانوا يعتقدون ان جدهم الاول وضع من دب ولمزون غزارة شعرهم الى هذا السبب . وفي جنوب استراليا تحرم قبيلة «منت جبي» [2] أكل لحم طوطم القبيلة الا اذا اضطرهم الجوع الى ارتكاب هذا الوزر العظيم وعند ذلك يبدون أسفهم الشديد الذي يعبرون عنه بذكر كلمة ونجنج (Wingong) ومعناها أصدقاء وكلمة توماناج (Tumanang) ومعناها طوطمها وعند النطق بالكلمة الاخيرة يلمسون صدورهم ليعبروا عن العلاقة المتينة بينهم وبين الطوطم الذي يعدونهُ جزءًا منهم . ومن القبائل الاسترالية مَن كانت تحرم على الصبية أكل لحوم طوطمهم لأنها تعدُّه في منزلة الأخ لهم كما ان بعضها يحرم قتل الطوطم وهو نائم ولا يكون هذا القتل الا عند ضرورة قصوى ومع ذلك يعطى الطوطم فرصة للفرار لأنهم يعدُّون الطوطم فرداً منهم وفي قتله جريمة لا تغتفر لذا وجب تجنب هذا القتل ما أمكن . وفي كولمبيا البريطانية يحرم الهنود قتل الطوطم واذا فرض ورأى أحدهم شخصاً يقتل طوطماً فانه يعطي وجهه من العار وبعد ذلك يطالب بالتعويض واذا وسم أحد هؤلاء الهنود صورة للطوطم على جبهته فان جميع أفراد القبيلة التي تنتمي لهذا الطوطم تقدم لهذا الشخص فروض الاحترام وذلك بالقاء الاسئلة أمامه . وكان بعض الهنود الحمر في بنسلفانيا يتخذون الحية ذات الجرس طوطماً لهم ويحرمون قتلها لاعتقادهم انها جد لهم وان هذا الجرس يستعمل في تحذيرهم من الخطر الذي قد يداهمهم كما كانوا يحرمون على أنفسهم أكل لحم الخنزير والارانب لما بينهم وبينها من صلة . أما قبائل «الدامارا» [3] في جنوب افريقية فانها تنقسم الى عدة عشائر تسمى الدا [4] ولكل منها طوطم خاص ومن هذه الطواطم ذكر الثور الارقط وهو مرقط برقط بيض سود او حمر والغنم التي لا قرون لها وبعضها يقدس الجرعة التي يتناولها الثور وقد بلغ احترام بعض هذه العشائر لهذه الطواطم ان حرموا على أنفسهم لمس الاواني التي تطهى فيها لحوم هذه الحيوانات . ويتحاشون حتى الدخان الذي يتصاعد من النيران التي تستخدم في طهي هذه اللحوم . كذلك الحال في زيوج سنغامبيا [5] وبين جماعة «المندا» او المندارى [6] . وجماعة الاريون [7] في البنغال ويحرم عليهم الزواج من قبيلتهم كل هؤلاء لا يأكلون لحوم طواطمهم

---

(١) Lubbock — Londas (٣) Mount gambier (٢) Ainos (١)

(٤) Encyclopédie Ethnographie Vol III Page 390 (٤)

(٥) Mundas, Mundaris. Oraons (٥)